مقام التوبة عند الصوفية

بقلم أبو الوفا الغنيمى التفتازانى
شيخ السادة الغنيمية ومدرس الفلسفة الاسلامية
بكلية الاداب بجامعة القاهرة

ان أول مقام من مقامات السلوك فى الطريق الى الله عند الصوفية هو مقام التوبة ، والتوبة تعنى الندم على ما فعل الانسان من المخالفات ، والعزم على عدم الرجوع اليها ، فهى من الرجوع ، تقول العرب : تاب أى رجع .

وعلى السالك لطريق الله أن يطلب التوبة من الله فى كل وقت من أوقاته وقد حثه الله عليها بقوله تعالى : (وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) ، وبقوله تعالى : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)

وسبيل التوبة عند الصوفية هو التفكير ، وذلك بأن يتفكر الانسان فى أعمال نهاره ، فاذا وجد طاعة شكر الله عليها ، واذا وجد معصية وبخ نفسه عليها واستغفر الله ، وتاب اليه .

ويجب على السالك حسن الظن بالله دائما ، فاذا وقع فى ذنب من الذنوب وجب عليه ألا يستعظم ذنبه ويبأس مما هو فيه يأسا يدفعه الى عدم التوبة منه ،ولو عرف السالك ربه بما هو عليه من صفات الحلم والكرم والفضل والمعرفة ، لاستصغر ذنبه مهما عظم ، ولأقبل بذلك على التوبة غير يائس من الوصول الى الله ، والى هذا يشير ابن عطاء الله السكندرى بقوله للسالك «لايعظم الذنب عندك عظمة تصدك عن حسن الظن بالله تعالى فان من عرف ربه استصغر فى جنب كرمه ذنبه » .

والايمان بأن ارادة الله ارادة مطلقة محيطة بكل شىء ، بحيث لا يخرج عنها مقدور ، يجعل السالك للطريق الصوفى غير يائس من وجود الخروج عما هو فيه من الشهوة والغفلة الى حال الطاعة بهذه الارادة الالهية ، وما أجمل ما يقول السكندرى فى هذا المعنى : « من استغرب أن ينقذه الله من شهوته ، وأن يخرجه من وجود غفلته فقد استعجز القدرة الالهية ، وكان الله على كل شىء مقتدرا » .

والتوبة بمعنى الرجوع عن المعاصى هى توبة العوام ، أما الخواص فلهم توبة من نوع آخر ، فهم يريدون الحضور مع الحق دائما ، وقلوبهم عامرة

بذكره أبدا ، فاذا غفلوا عن ذكره لحظة واحدة سارعوا بالتوبة عن هذه الغفلة ، والى ذلك يشير ذو النون المصرى بقوله : « التوبة توبتان : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة » . وحول هذا المعنى أيضا يقول عبد الله بن على بن محمد التميمى : « شتان ما بين تائب يتوب من الزلات ، وتائب يتوب من الغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات » .. وقد أضاف التميمى فى عبارته معنى جديدا هو توبة الصوفية من رؤية حسناتهم وأعمالهم لأن فى رؤيتها اغترار قد يؤدى الى الاستدراج ، والكامل من الصوفية لا يرى حسناته ، فاذا رآها سارع الى التوبة منها تحقيقا لمعنى الاخلاص .

والله سبحانه وتعالى هو الذى يمن على عباده بالتوبة مصداقا لقوله تعالى: « ثم تاب عليهم ليتوبوا » . قال رجل لرابعة العدوية : « اننى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى فلو تبت هل يتوب على ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت » ولكن هذا لا يعنى أن يقف المذنب موقفا سلبيا ، فعليه بالتوبة ، فان الله قد أمره بها ، أما الايمان بأن التوبة محض فضل من الله ، فهذا من أدب السلوك ، فى أن كل شىء مرده الى الله لأنه هو الفاعل لكل شىء ، وأدب النبى صلى الله عليه وسلم فى هذا خير ما يقتدى به المقتدون ، فكان من سنته دوام الاستغفار حتى أنه قال : انه ليغان على قلبى فأستغفر الله فى اليوم سبعين مرة ، وروى عن أنس بن مالك ، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، واذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب ، ثم تلا : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) ، قيل يا رسول الله ، وما علامة التوبة ؟ قال : الندامة » .

والتوبة من الناحية النفسية تعنى التحول من الحياة الناقصة الى حياة أكمل يستشعر فيها الصوفى كمالا روحيا . وهذا يكون نتيجة تجاربه الدينية الانفعالية القوية المستمرة ، وفى حياة بعض الصوفية نجد توبتهم عبارة عن تغير فجائى يعتريهم ، ويعتبر مميزا لهم عن غيرهم ، ويدفعهم الى التماس الطمأنينة فى حياة روحية سامية من نوع خاص ، على نحو ما نجده عند الامام الغزالى .

هذا وشيوخ الصوفية أقدر من غيرهم على استتابة الناس لأنهم أطباء روحيون يعرفون مواطن الداء ، ويصفون لمريديهم أنجع الدواء ، ولعله من المفيد هنا أن نعرض للقارىء الكريم صورة حية لما نقول ، فقد اخترنا نصا لشيخ من أشهر شيوخ الصوفية الاندلسيين هو ابن عباد الرندى المتوفى سنة ٧٩٢ هـ يوجه الخطاب فيه الى مريديه ليحثهم على التوبة ، ويبعث الثقة فى نفوسهم ، ولا يجعلهم ييأسون من رحمة الله ، استمع اليه قائلا لهم : « أما بعد فقد وصلنى كتابكم وتعرفت منه ما أخبرتم به من أحوالكم ... فنقول : جملة ما ذكرتموه يرجع الى ثلاثة معان : المعنى الاول أنكم متصفون

بذنوب وعيوب ، والثانى عجزكم عن ازالة ما وقع ، وعن الاحتراز مما لم يقع . والثالث تحيركم بسبب ذلك وتشوش خاطركم من قبله ... ثم أن هذه العيوب التى أخبرتم بها تصريحا أو تلويحا ينبغى لكم أن تنظروا فيها بعين البصيرة ، ولا تأخذوا الامر جزافا ، فانكم تسرفون فى ذلك ، ويؤول الأمر بكم الى جهالات وسوء أدب ، وتتوهمون ما ليس بعيب عيبا ، وترون ما هو عين الدواء داء ... وللنظر الى العيوب التى ذكرتموها اعتباران : أحدهما من حيث اختراعها وخلقها حنقه لكم ، والثانى من حيث نسبتهـــا اليكم شرعا . وهذان الاعتباران هما المعنى بقول بعضهم : أرادها منه ولم يردها له ، فبالاعتبار الاول لا حمد فيها ولا ذم بحســـب من قامت به ، والبارى سبحانه وتعالى هو المحمود عليها بكل حال ، ويجب عليكم الرضا بقضائه ، والتسليم لحكمته ومشيئته ، فتستعجلون بذلك راحة أنفسكم ، وتتفرغون للنظر فيما يجب عليكم . وبالاعتبار الثانى هى مذمومة ، ويجب عليكم التوبة منها ، والحزن والندم عليها ، فان وفيتم بذلك حـــزتم أجرا جزيلا فيما تكابدونه من ذلك ، وفزتم برضا مولاكم عنـــكم ، اذ فعلتم ما أمركم به ... فاذا قمتم بذلك فأبشروا فقد حزتم مرتبة يا لها من مرتبة لا يعرف قدرها الا الآحاد من الاولياء ، وصاحب هذه الحالة (يعنى اللجوء والافتقار الى الله) جدير بأن يسعف بطلبته ، ويجاب الى مقصوده وبغيته ، لصدق الوعد باجابة المضطر ، وربنا عز وجل لا يخلف الميعاد .

« فان لم تصدقوا فى التجائكم وافتقاركم ، وبقيتم فى عماكم واغترارركم ، الا أنكم كارهون لأحوالكم التى أنتم عليها ، شديد حرصكم على أن تجدوا سبيلا الى الانتقال عنها ، ماقتون لانفسكم متأسفون على تفريطكم وتضييعكم فلكم ههنا معاملات قلبية وبدنية ، فلتسلكوا طريق ربكم عليها ولا يمنعكم من ذلك ما أنتم عليه من المرض ، وقد قال بعض الكبار : ســـيروا الى الله عرجا ومكاسير ... وفى الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنظروا الى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم ، فانه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » ، ولا شك أنكم تعلمون من نعم ربكم عليـــكم فى دينكم ودنياكم ما لا تقدرون على احصائه . ومن جملتها بل ومن أعظمها كراهتكم لما أنتم عليه من الأحوال المذكورة ، وذلك من نتائج الايمان لقوله صلى الله عليه وسلم : « من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن » ...

« ورؤيتكم أنكم أشرفتم على الهلاك هو عين سلامتكم وغنيمتكم عنـــد العارفين المحققين ، اذ لو لم تروا ذلك كان مرضا يجب عليكم علاجه ، وقد قال رجل لحذيفة : انى أخاف أن أكون منافقا ، فقال : لو كنت منافقا ما خفت النفاق . وأهم ما على المريد مراعاة هذه الخصلة وحرصه على أن تكون فيه ، فبذلك يزكو عمله وينجح سعيه ، ويكون ذلك دليلا على صحة مقصده، وصدق ارادته ، فكم من شخص متعبد مجتهد عامل بظواهر الطاعات مجتنبا

لظواهر السيئات ، وهو مع ذلك معجب ومغتر متكبر ، فهو بجهده وكده سالك سبيل طرده وبعده ، وكم من شخص ترك الدنيا ورفعتها ورد نفسه الى قدر يسير منها وفاسق من الفساق المتهتكين أعلى منزلة منه عند ربه لأن من أشهد البعد فى القرب فهو ملطوف به فى وجود الخوف ، فيرقى بذلك درجات عليا ، ومن أشهد القرب فى البعد فهو ممكور به فى وجود الامن فيتردى بذلك الى دركات سفلى ... وقد قال سهل بن عبد الله : العبد لا بد له من مولاه على كل حال ، وأحسن حاله أن يرجع اليه فى كل شىء : اذا عصى يقول : يا رب استر على ، فاذا فرغ من المعصية قال : يا رب تب على ، فاذاتاب قال : يا رب ارزقنى العصمة ، فاذا عمل قال : يا رب تقبل منى . وقال بعض العارفين فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « يسروا ولا تعسروا » قال : معناه دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فان من دلك على الدنيا قد غرك ، ومن دلك على الاعمال فقد أتعبك ، ومن دلك على الله فقد نصحك » .

على هذه الصورة الرائعة كان شيوخ الصوفية يعالجون نفوس مريديهم ، وعلى هذا النحو كان يبثون الثقة فى نفوس الكثيرين ممن أذنبوا فاستعظموا ذنوبهم ، وهكذا جذبوا الناس الى حظيرة الايمان ، وحببوا اليه حياة الفضيلة وارتقوا بهم فى مدارج الكمال على اختلاف صوره .

المولد الصغير
للسيد أحمد البدوى

شهد سماحة السيد محمد محمود علوان شيخ مشايخ الطرق الصوفية الليلة الختامية لمولد العارف بالله السيد أحمد البدوى بطنطا .

وقد أقام السيد الخليفة مأدبة غداء لسماحته حضرها سيادة مدير الغربية ، وشيخ معهد طنطا ، والسيد محمد حسن شمس الدين ، والاستاذ طه عبد الباقى سرور ، والسيد أحمد البهى خليفة المقام الاحمدى

ثم اجتمع سماحته بشيوخ الطرق الصوفية ووكلاء المشيخة العامة ، موجها ومرشدا ومهنئا بالمولد الكريم ، وقد ودع كما استقبل بالاجلال والتقدير